

جوارى الحمارات

الحمارات

تنصرف الجوارى إلى العمل في نواح عديدة من مرافق الحياة تكاد لا تحصى ، كما أن أحداً من المؤرخين لم يفتن في عصر من عصور الحضارة العربية إلى إحصاء تقريبي لهن ، رغم غلبتهن على الحرائر ، وتصدرهن في المجالس .

هن في كل مكان : في المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو المرضع أو المربية ، أو في القصور يقمن بما أسلفنا من فنون النشاط ، وبعث المرح في قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء وقرض الشعر أحياناً ، أو في معارض القيانين والحمارين فيكسبن لأصحابهن المال والهدايا : مما يعوض عليهم بعض ما أنفقوه لشرائهن والعناية بلباسهن وجمالهن .

وجوارى الحمارات حريات بالعناية لكثرتهن وتعدد أجناسهن . بل الأحرى بنا التوقف قليلاً أمام هذه الحمارات التي كثرت الإشارات إليها في دواوين الشعراء المتغنين بالحمرة ، ولكنها ظلت تبدو لنا نحن المعاصرين شاحبة الوجه ، مبهمة الخطوط ،

فيتخيلها كل منا كما يشاء هوذا . أو كما يتصور الخمارات المعاصرة ،
 في حين أن تبيان هذه الناحية من الحياة قد يؤدي إلى تعديل
 بعض الآراء . ويجلو أمامنا صورة جديدة ضريفة عن الحياة
 آنذاك . فمن الخطأ تخيلها مشابها لما نشهده في المدن العامرة
 من حيث التنسيق والتنظيم والإعلان عن نفسها ، وتصدرها
 في الشوارع وتوثيقها أمام الناس . ومن حيث تعبئتها بأنواع
 المشروبات . وجديد الفرش وشهي المقبلات ، وطرف الزينة .
 الواقع يسىء إلى خيالنا . ويخالف ما يمكن أن يستقر في ذهننا
 بعد مطالعة الشعر الحمري ، لأن هذه الخمارات كانت جد
 متواضعة . فلا تحوى إلا ما يحتاج إليه الخمار في صنعته والشارب
 في تعاظيه . وأما الكماليات فنادرة الوجود في حانات ذلك العهد .
 وإذا شئنا رسم جدول بما يوجد عادة فيها نراه لا يتعدى البسط
 والتمارق التي يتسدد عليها الشاربون والدنان التي تحبس فيها
 الحمرة . والأباريق التي تفرغ فيها بعد أن توزن لهم ،
 والقناني والطاسات والدوارق والكؤوس والبزل والأعواد والطنابير .
 كانت هذه الأواني متنوعة . مختلفة الأشكال والألوان
 باختلاف الحانات . فيعضهم يؤثر وضع الحمرة المعتقة في
 نحابية ، يختم فوها بالطين ، وآخرون يعمدون إلى الزقاق المصنوعة
 من الجلد كقول الشاعر :

تضمنها زق أزب كأنه صريع من السودان ذو شعر جعد
يربط رأسه بنجل أو خيظ ، ويحل عندما تسكب منه الحمرة :
ولما حللنا رأسه من رباطه وفاض دمماً كالمسك أو عنبر الهند
وجدناه في بعض الزوايا كأنه أخو قرعة يهتز من شدة البرد (١)
وكذلك كانت الأباريق والكؤوس مختلفة الأصناف والأنواع
تصنع حيناً من الفخار أو الحديد ، وأحياناً من الفضة والذهب ،
وتوشى بالرسوم والتصاوير ، فتبدو فتنة للناظرين . ولعل الحمارات
التي تردد عليها الاستقرائية كانت زاخرة بأمثال هذه كقول الشاعر :
فدعا بالبزال ثم وجاها فجرت كالعقيق والجلنار
في أباريق من بلحين حسان كظباء سكن عرض قفار
أو كراك ذعرن من صوت صقر مسرعات شواخص الأبصار (٢)
تمثل نقوش الكؤوس مشاهد عديدة من معارك حربية
ترمز إلى العهدين الفارسي والبيزنطي ، دقيقة الصنع ، تتقيد
بجزئيات الرسوم من حيث تفاصيل الثياب والأزياء :
فحل بزالها في قعر كأس محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى وكسرى في قرار الطهرجار

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٢٣ .

وحل الجند تحت ركاب كسرى بأعمدة واقبية قصار (١)

أما القناني الزجاجية فتملأ نثر بزب الذين يتناولون الحمرة خارج الحانة .

استخفاء الحمارين

كانت الحمارات متوارية ، لا تعلن عن نفسها في كثير أو قليل ، ولا تجرؤ على الظهور أمام الناس خوفاً من أصحاب السلطان ورجال الشرطة الذين يتعقبون أصحاب الحانات ويتبعونهم ، ويكشفون ما استتر من أمرهم ، لينالوا جزاء مخالفتهم الشرع . لذلك كانت الدعارة تنحصر في الزين الذين يترددون على الحانة من عشاق الحمرة والحجان ، بعد أن يتعارفوا أحياناً على رموز خاصة يميز بها الحمار الزبون المسالم من الطارق الغريب أو الشرطي المداهم . وكثيراً ما تكون الحانة منزلاً لصاحبها ، يسترفيه أمره إذا عنفت المطاردة . فعند ما يطرق الرواد بابه ليلاً يتناوم ، وقد دب الرعب في قلبه خوفاً من وشاية ، كما قال الشاعر :

تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب

ولما دعونا باسمه طار ذعره وأيقن أن الرجل منه خصيب (١)
وكما قال في ممتطع آخر:

لما قرعت عليه الباب أو جلته وقال بين مسر الخوف والتراجي
من ذا... فقلت في نادته لذته

افتح . فتمهته من قولى وقال لقد

هيجت خوفاً لأمر فيه إيهاجي (٢)

واللخمارين بعض العذر في هذا الخوف ، لأن وقوعهم في قبضة الشرطي يؤدي إلى إقفال الخمار . أى باب رزقهم . وإلى إهراق الخمر المعتمقة بالطرقات . وإلى جلد صاحبها ، وسجنه أحياناً . وأخذ ماله من مال أو متاع . هذا إذا كان ذمياً ، أما إذا كان حنيفاً فإن مصيره يكون أسوأ . لذلك تفنن أصحاب الخمارات أو الصاحبات في التستر والتخفي . وكانت النساء أغلب من الرجال في اصطناع هذه المهنة . فأجهدن أذهانهن في ابتكار الأساليب التي ترد عنهن كيد الشرطة ، وتحجبن عن عيونهن . من أساليبهن أنهن جعلن لأبواب منازلهن الوسيعة طاقات صغيرة في مستوى الوجه ، يفتحها ويوصون منها لمراقبة الزقاق والتعرف إلى الطارق قبل ولوجه العتبة ، حتى

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٤٥ .

إذا اطمأنن إليه فتحن الباب على مصراعيه . ورحبن به كما يليق بالصديق . وإذا خشين سعاية أو أنكرن الزى أوصدن الباب جيداً بالمنزلاج . وتحصن وراءه وأنكرن أن لديهن خمرًا ومبتعة . إلى أن يخفين كل ما يدل على أن المنزل خمارة موهمة . أو يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

رجال الشرطة

ولعل بعض رجال الشرط عهد ذلك كانوا كبعضهم اليوم . يتشددون في المطاردة والمراقبة إلى أن تقع الفريسة في أيديهم فينصبون أنفسهم حكمًا للحصول على أتاوة ينعمون بها . دون أن يرفعوا الأمر إلى رؤسائهم . ويستعينون بوظيفتهم لبلوغ مآربهم في الشراب ومن الطريف أن نشير إلى حانة شهلاء اليهودية المشهورة بأناقة ملبسها ونظافة كؤوسها ، ورقة حديثها . كان أحد الشعراء متيسماً بها ، ألف التردد عليها والتودد إليها . يشرب هناك ويقول في كل ذلك شعراً . فيسعده التوفيق حيناً ، ويخطئه أحياناً . وقد نزل بشهلاء في أحد الأمسية . وأقفل الباب وراءه ، فإذا بدق عليه ، فدنا مع صاحبه من الكوة الصغيرة وفتحها . ونظرا إلى الخارج فأبصرا شرطياً . في وسعنا أن نتمثل ما أصابهما من الجزع ، فالحد أقل ما ينتظر الشاعر المسلم ، والحراب

أيسر ما يصيب شهلاء الذمية . ولكن الشرطي كان مسلماً . فهو لا يود إزعاجهما . بل يريد أن يسقى خمرأً ليأمننا شره . ويلح في ذلك ، والشاعر وصاحبه يترددان متخوفين من غدره إذا استقر داخل الحمار ، حتى يفتننا إلى الثقب الذي في الباب ، فيضعان له فيه أنبوبة قصب ويصيان فيه النبيذ من داخل ، والشرطي يشرب من خارج . فأفرخ روع الصديقين وروى الشرطي ظمأه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . وقد قال الشاعر في ذلك شعراً ، فكان مما قاله :

سأل الشرطي أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
 إنما نشرب من أموالنا فاسألوا الشرطي ما هذا الغضب (١)
 فالحمارة هي إذن في أغلب الأحيان غرفة أو بعض غرفة ،
 مجهزة بالأنماط ، وقد طرحت الزقاق في زاوية منها ، أو تخبأ
 في مكان لا تقع عليه العيون يقعد الشرب على البسط ،
 ويأخذون بأيديهم الكؤوس وهكذا لا ترى أثراً للموائد
 والكراسي ، ولا يقدم لهم شيء من المشهيات إلا نادراً .
 وأشهر النقول التي يتناولونها بعد ارتشاف الكؤوس ما عرف
 بنقل أبي نواس . فقد سأل أحد الخلفاء بعضهم : ما أخف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩١ .

النقل على النبيذ ؟ فقال له : نقل ابى نواس . فقال : ما هو ؟ فأنشده :

ما لي في الناس كلهم مثل مائى خمر ونقلى القبل (١)
 يمر الساقى ، وهو غالباً جارية بارعة الجمال بالشرب ، يحمل
 بيده إبريقاً معدنياً له عنق دقيقة ، فيملأ الكؤوس الفارغة
 حيناً بعد آخر . ولم يكن أصحاب الحمامات يتناولون من الزبن
 ثمن كل قذح على حدة ، وإنما يبيعونهم إبريقاً مملوءاً يتسلمه
 النديم ، حتى إذا فرغ الأول قبضوا ثمن الثانى وترعوه خمرأ ،
 وعهدوا به إلى النديم ليتابع مهمته في سقيهم .

الحمامات الريفية

تقع بعض الحمامات المشهورة خارج المدن ، في المواضع
 النزهة المحفوفة بالكروم والأشجار والمعاصر ، فيقصدونها عشاق
 الحمرة واللهو ويقيمون فيها أياماً . ولعل هذه كانت واسعة ،
 تتألف أحياناً من غرف عديدة . يعتمد فيها الشرب إلى الراحة ،
 وإلى النوم غراراً ، ليعودوا وقد جددوا نشاطهم إلى احتساء
 الحمرة . ومن هذه الحمامات الطلقة النزهة تلك التى نزلها أبو نواس
 عند ما أزمع على الحج ، وهى ما بين الكوفة والقادسية . فلما

ذاق خمرها تشبهي متعتها ، ونازعته نفسه إلى الإقامة فيها والتسوية
 في أمر دينه في سبيل دنياه ، فتحول عن عزمه واستقر فيها
 يشرب . وقد اطمأن إلى ملاعب شبابه . وما زال هناك يحتسى
 الكؤوس حتى وفد أوائل الحاج عائداً من المناسك ، فكر معهم
 راجعاً إلى بغداد وكأنه كان منهم .

أكثر القرى شهرة بمثل هذه الحانات عانة وقطربل ، وفيها
 يقول أبو نواس :

قطربل مربعي ولي بقرب الكوخ

مصيف وأمي العنكب (١)

وكذلك قنة الفك ، وكلواذ والصالحية وطيرناباذا والكرخ
 التي ورد ذكرها في البيت السابق . ولعل الشاعر أشار إلى واحدة
 من هذه الحمارات الريفية في قوله :

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
 مهاد صفت نمارقه في ظل كرم معرش خضد
 قد لحقتك الغصون أريسة فيومك الغض بالنعيم ندى (٢)

كانت هذه الحانات على اختلاف أنواعها ومواقعها تدر
 على أصحابها المال الوفير ، مما يساعدهم على البذل في رشوة أصحاب

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠١ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٦٤ .

النفوذ المسؤولين وكف الأذى عنهم ، فيظهر بعضهم أمره عياناً دون وجل ، ويجود بناء حانته ويسيجها أو يؤزرها - كما يقال - ويستفتحها بالساج . ويقيمها بجانب بستان نزه يملأ الأنظار بهجة ومتعة ، حتى رأينا خادماً المتوكل ينصرف إلى مثل هذه التجارة الرباحة . بعد أن تبين فيها الوسيلة النضلي لاستدرار الأموال ، فاتخذ مثل هذه الحانة الأنيقة الظاهرة مقراً للارستقراطيين من الشاربين والمجان وأصحاب الكيف من الأثرياء والقواد وأبناء الأسر المشهورة ، فلا يسمح لأحد من العامة الوضعاء بالدخول إليها . وحسن فيها أدوات الشراب ، واتخذ لها خماراً يهودياً لبقاً حاذقاً ، وحال بنفوذه وماله دون عيون الشرطة (١)

خمارنا الواثق

مما لا شك فيه أن كثيرين من كبار القوم قد أغرموا بمثل هذه الخمارات ، فكانوا يتوافدون عليها ، وينعمون بما فيها ، حتى تعداهم هذا الغرام إلى بعض الخلفاء العباسيين الذين حال مقامهم دون تردهم على الحانات ، فأنشأوا مشيلات لها في حدائقهم ، وخلقوا الجو المرح الذي يطيف بها . كما حدث للواثق الذي كان يجب الحانات ، وما قيل فيها ، وما غنى به في

(١) مسالك الأبحار ص ٣٩٥ .

ذكرها فعقد حائتين : إحداهما في دار الحرم ، والأخرى على الشط ببغداد . وأمر أن يختار له خمار نظيف من أهل قطربل . فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان ، وابنتان على شيء كثير من الجمال . فجعلهم الواصل في الحائتين . وضم إليهم خدماً وغلماًناً وجواري روميات . وأخدم النساء حانة الحرم . والرجال حانة الشط . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما فرش الخلافة ، وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه . فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنين ، ولم يدع أحداً يصلح من ضراب الطناير إلا أحضره . وتوافد الشرب ، وبرز الخمار مع أولاده وعليهم الأقيية المسهمة ، وفي أوساطهم الزناير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الأطباق . وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب . فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً . وبزلت كما يفعل في الحانات ، وجعل يؤتى بالتماذج فيذوقها ، ويعرض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهي ، ويحجى إلى الخمار ويكتال منه بمكيال في إنائه ، كما يفعل في الحانات ، ويعود إلى موضعه فيجلس فيه . وأمر

الخليفة أن يجعل على رؤوس الحضور أكابيل الآس ، وما أشبهه من الرياحين ، وشرب شرباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجته بألف أخرى ، ولكل واحد من أولاده بخمسة دینار . ولم يبرح انجلس أحد من الشرب إلا بجائزة سنية . (١)

شروط الكمال

لعلنا فطنا إلى أن هذه الأكابيل من الآس والياسمين والغار ، وما أشبهها من أنواع الرياحين ما هي إلا بقية من وثنية قديمة العهد ، يعتقد أنها تذهب بالخمار ، وتساعد حاملها على استساغة الشراب . وقد بدا لنا من المثال الذي عرضناه باقتضاب أن الحمرة لا تكتمل شروطها إلا إذا كانت بإشراف ذمي نصراني أو يهودي بنوع خاص ، وأن تدور بها القيان على الشاريين . ولعلنا فطنا أيضاً إلى ما يرمز إليه الزنار الذي تمنطق به الرجل وزوجته من أنهما حاذقان ماهران بفنون الشراب لأنهما ذميان . فالشاربون لا يستطيعون القهوة التي تسكبها يد مسلمة ، وإنما لها كاهنات خبيرات يحذقن الطقوس الحمرية ويتوارثنها . أما عن جودة فالخمار اليهودي أو النصراني من شروط الكمال في الحانات ، لأن كلا منهما قد ألف مهنته وأجادها ، وعرف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

أسرار الحمرة وأنواعها وطعمونها وشمونها. وأدرك أذواق الشاربين ،
فتفنن في إرضائهم وتأمين سبل الراحة لهم . وليس يعنى قولنا
أن المسلمين لم يحترفوا هذه المهنة بل يعنى أن الادميين من يهود
ونصارى كانوا أغلب من انصرف إلى هذه التجارة ، فأبدعوا
فيها . واطمأنت إليهم الزبن . ولم تخل حياة الحمارين من
تحاسد طبيعي بين يهود ونصارى ، بل لعلهم أعلنوا الخصومة ،
وغالوا في التذام والتراشق بالفريات والتهم : وكل منهم ينتقص
من فضل عدوه ، ويغالى في تقریظ نفسه .

كان هؤلاء الحمارون يتناسون أسماءهم المركبة أحيانا من أعلام
السنة المخارج ، ويطلقون على أنفسهم ألقاباً خفيفة رشيقة على
ثقيلة الشرب دون عناء . ونحن واجدون عند الشعراء الحمريين
تجارة من الإشارات إلى هؤلاء الرجال والنسوة المنصرفين إلى
كثيراً الحمرة ، فيقول أحدهم :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم

إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا

فلما حكى الزنار أن ليس مسلما

ظننا به خيراً فظن بنا شرا

فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟

فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا

ولكن يهودى يحبك ظاهراً
 ويضمر فى المكنون منه نك الغدرا
 فقلت له : ما الاسم ؟ قال سمؤال
 ولكنى أكنى بعسرو ولا عمرا
 وما شرفتنى كنية عربية
 ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخراً
 ولكنها نختت وقلت حروفها
 وليست كأخرى إنما جعلت وقرا (١)

ولعل خمارنا هذا يعرض بالألقاب التى كانت تطلق على
 الخمارين النصارى، كذلك الذى جاء عنه :
 فقلت له : ما الاسم حبيت ؟ قال لى
 دعانى أبى سابا ولقبى شمرا (٢)

زينة الحانات

يختار أصحاب الحانات غالباً قياناً مكتملات الجمال والأدب
 والذوق ، ناعمات بكثير من الميزات التى تجعلهن مقربات

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٣ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ٢١٧ .

إلى أذواق الأدباء وغير الأدباء من الشاربيين ، كتلك الساقية
التي يقول فيها الشاعر :

في كف ساقية ناهيك ساقية

في حسن قد وفي ظرف وفي أدب

كانت لرب قيان ذي معاينة

بالكشح محترف بالكشح مكتسب

حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها

وأفعمت في تمام الجسم والعصب

تمت فلم ير إنسان لها شيئاً

فيمن برا الله من عجم ومن عرب (١)

كانت جوارى الحانات متفنات في إظهار ملاحظتهن ،

يتخذن أحياناً أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر ،

ويعقربن سوافهن على مستدار الأذن ، ويجعلن في أيديهن

الدمالج ، وفي أرجلهن الخلاخيل (٢) ويحجبن أجسامهن بالشفيف

من النسيج ، وينصرفن إلى سكب الحمرة في الأقداح ، أو

مزجها بالماء ، وبالغناء والرقص ، ويتقيدن برغبات الشاربيين

فينشدن ما يخطر لهم من الأبيات على ألحان معدة شائعة .

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٢

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٣٢



وكثيراً ما كان الشرب يتقارضون الشعر مديحاً وغزلاً ووصفاً ،
ثم يطرحون على القيان ما انتهوا إليه ، فيتغنين به . وهكذا تتعاون
قريحة الشعراء ، وحناجر القيان ، ودييب الحمرة في خلق جو
زاخر بالطرب والأدب . وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط
فيها ألحان المغنيات المترافقات بدق الطنابير ، وعزف المزامير ،
وصخب السكارى ، وكل منهم يلح في طلب صوت معين ،
والحوارى متأنيات حريصات على إرضاء الجميع :

وصهباء من حانوت ريمان قد غدا
على ولم ينظر بها الشرق صابح
تبصر عنها اليوم كأس روية
وبرد العشايا والقيان الصوادح
وبتنا على الأنماط والبيض كالدمى
تضئ لنا لباتهن المصابيح^(١)

خداع الحواری

القيان اللواتي عرفهن العرب لا يختلفن عن شبيهاتهن في
جميع أصقاع العالم قديمه وحديثه . يتوددن إلى صاحب المال
الوفير ، ويبدن غوايتهن ، ويعمدن إلى جميع الأساليب

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٨٨ .

المغرية لإيقاع من يردنه في حبالهن . وقد تبين للجاحظ : وهو
المحلل المبدع ، أن القينة تكاد لا تخلص في عشقها . لأنها
مجبولة على نصب الأشرار للمرابطين عندها ، ليقعوا في
أنشوطها . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم .
وغازلته في أشعار الغناء . ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق
إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته . والحزن لفراقه .
فإذا أحست أن سحرها بدأ أثره في نفسه تزيدت فيما كانت
قد شرعت فيه ، وأوحته أن الذي بها أكثر مما به منها .
ثم يبدأ عهد ثان بينهما . فتكاتبه وتشكو إليه هواها . وتمسم
له أنها مدت الدواء بدمعها . وأنه لا يفارق ضميرها في ليلها
ونهارها . وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه . ولا
تريده لماله ، بل لنفسه . فإذا تلطف فأجابها ادعت أنها قد صيرت
الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته . وعندئذ يبدأ
عهد ثالث بينهما . تظهر فيه الغيرة عليه . وتنسب إليه النظر
إلى صواحبها . وتسقيه أنصاف أقداحها ، وتزوده عند انصرافه
نخلة من شعرها . وتهدى إليه في الأعياد الهدايا المناسبة ،
وتنقش على خاتمها اسمه . وترغم أنها لا تنام شوقاً إليه . ولا
تهنأ بالطعام وجرماً به . وأنها جمعت قينة من دموعها من البكاء
عليه .

وربما عمدت إلى مثل هذه الحيل . وتلبست مثل هذه
العواطف ، ورددت مثل هذه الأقوال والأعمال . وهى
تزعم كل ذلك لثلاثة أو أربعة من المترددين عليها . فتبكي
لواحد بعين . وتضحك لرفيقته بالأخرى ، وتوهم كلا منهم
أنها له دون الآخر . وأن الذى يظهر خلاف ضميرها . وتكتب
خمس عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة . تذكر لكل واحد
منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الحلوة به دونهم (١)

تتأبر على هذا النهج من الخداع إلى أن تنتزع منه ما معه
من المال . فتطرحه خارجاً . وقد فازت منه بما أرادت ، وفاز
منها بالهم والنصب . وقد أوجز أحد الشعراء هذه الحالة بأبيات
قال فيها :

إذا رأين القيان أحق ذاً . مال يقلبن نحوه الخدقا
وبالتغنى وبالتدليل يسـلين فؤاداً بحبه علقا
حتى إذا ما سلخن جلده سـلخاً رقيقاً وبدد الورقا
قلن ادخلوا . ذا الطوير قد طرح الـريش ، وشدوا من دونه الغلقا

(١) رسالة القيان ص ٦٩ - ٧٢ .

فبتن يرعين في دراهمه

وبات يرعى الهموم والأرقا (١)

لعلنا واجدون هؤلاء القيان بعض العذر فيما يفعلنه ، وما يقلنه ، فسادتهن يربونهن على هذه الأخلاق اكتساباً للمال والهدايا ، وينشأن في بيئة فاسدة الخلق والعادات ، يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على القلوب ، ويتعلمن الفنون التي تنفعهن في حياتهن المقبلة في بيوت القيان والحانات ومنازل موالينهن . فمن الصعوبة بمكان أن تسلم القينة من الفتنة ، وأن تتخلق بالجميل من الحصول والصدق والصراحة . فهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها على هو الحديث بين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة ، إذا ضرب بعضه ببعض بلغ عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق والحجون . وهي لا تنفك دراسة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٠ .

لصناعتها . مكبة عليها . تأخذ من المطارحين الذين يغالون في
إفسادها . وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها لأنها إن جفتها
تفلتت ، وإن أدمتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت .